# جيوبوليتيك الحافة: في الصراع المستحدث على آسيا الوسطى بين روسيا وتركيا

**أ. د. محمود حيدر***
أكاديمي وباحث من لبنان

* رئيس مركز دلتا للأبحاث المعمّقة ـ بيروت

## مقدمة

قد لا نجد في التاريخ الحديث علاقة بين فضائيين حضاريين يستدعيان الإشكال والمساءلة، كمثل العلاقة بين روسيا وتركيا، فلا تكاد تنعقد مقاربة جيو ـ سياسية بينهما، حتى تنهض ذاكرة سحيقة من التجاذب والتنافر والاختصام، ولو أن قدر الباحث في قوانين الجغرافيا والتاريخ أن ينتزع من احتدام الفضائيين ما يؤسس لتنظير مفارق في عالم الجيو ـ بوليتيك ومبادئ العلاقات الدولية، سوى أن ما يضاعف من جدوى درسٍ كهذا، هو بقاء عناصر الاحتدام بين الفضائيين الروسي والتركي في حالة تفاعل وامتداد منذ أول حرب ضروس خاضها العثمانيون والقياصرة في عام 1568 ومع تقادم الزمن ستتحول الحروب اللاحقة بينهما إلى ما يشبه سفراً تراجيدياً في التاريخ، إذ لم تخبُ ثقافة العداء، وإن تراجعت في أحقاب تاريخية معينة فرضتها التسويات أو اتفاقيات حسن الجوار.

مع الحدث الأوكراني، وقيام روسيا بإجراء استراتيجي ميداني قضى بإعادة شبه جزيرة القرم إلى سيادتها، عادت الغيوم السوداء لتسيطر على فضاء العلاقات الروسية التركية من جديد، وعلى الرغم من إعلان الحكومة التركية عبر وزير خارجيتها أحمد داوود أوغلو، أن أنقرة لن تسقط في فخ القرم، مشيراً إلى مخاطر تقسيم أوكرانيا عبر معادلة شرق أرثوذكسي موالٍ لروسيا وغرب كاثوليكي موالٍ لأوروبا[1]، فإن إعلاناً كهذا لم يفلح في طمأنة موسكو حيال ما يعد لها في واحدة من أخطر الجغرافيات السياسية تأثيراً على أمنها الاستراتيجي.

(1) جريدة ستار التركية، 3/4/ 2014

في هذا البحث مسعى للتعرُّف إلى ما يمكن أن نطلق عليه (لعنة الجوار الجيو ـ سياسي)، الذي انحكمت إليه شروط التموضع التاريخي لكل من الامبراطوريتين الطامحتين إلى الامتداد والنفوذ والسيطرة.

**عادت عقدة الجيوبولتيك المسلم لتحتل العقل القومي الروسي من جديد، على حين وجد الأتراك في هذا التطور فرصة تاريخية نادرة لاستعادة أحلام العثمنة.**

## أولاً: تركيا وعقدة الجيوبولتيك المسلم

ظلت آسيا الوسطى والقفقاز محور منازعات، بين الامبراطوريتين القيصرية والعثمانية طيلة خمسة قرون متواصلة، وحين تحولت إلى جمهوريات مستقلة مع تفكيك الاتحاد السوفياتي نشأت مشاعر متناقضة لدى الروس والأتراك، فقد عادت عقدة الجيوبولتيك المسلم لتحتل العقل القومي الروسي من جديد، على حين وجد الأتراك في هذا التطور فرصة تاريخية نادرة لاستعادة أحلام العثمنة، لقد حدث في نهاية القرن العشرين تحول جيو- استراتيجي في غاية الأهمية والخطورة في آن واحد، إذ باتت الجمهوريات المسلمة من أذربيجان إلى قرقيزيا وكازاخستان وأوزبكستان وتركمانستان، مديات طبيعية وحيوية دينياً وعرقياً وثقافياً واقتصادياً بالنسبة إلى تركيا.

فهذه (الجمهوريات المسلمة ذات الأصل التركي)، تؤلف في الواقع جزءاً من (العالم التركي)، الذي يشمل، (أتراك الداخل) (أي تركيا نفسها)، و(أتراك الخارج) أيضاً، والتعبير الأخير يشمل جميع الأتراك الذين يعيشون خارج تركيا، في (الاتحاد السوفياتي السابق)، والصين والبلقان وقبرص الشمالية وبعض دول الشرق الأوسط، ولا سيّما العراق وسوريا، ويعادل مجموع (أتراك الخارج)، ثلاثة أضعاف سكان تركيا، فيما تبلغ مساحة (الجمهوريات التركية)، فقط في آسيا الوسطى والقفقاز (4) ملايين كلم$^2$، أي خمسة أضعاف مساحة تركيا[2].

(2) محمد نور الدين، السياسة الخارجية التركية: امتحان آسيا الوسطى، شؤون الشرق الاوسط، العدد (6)، اذار/ مارس/ 1992، ص12.

وبحسب الدراسات تمتاز (الجمهوريات ذات الجذور التركية)، بوفرة مواردها الطبيعية وبثرواتها المختلفة، فأذربيجان فقط، تملك (4,5) مليارات طن من احتياطي النفط (أي إنها تحوي إنتاجاً سنوياً بمعدل 50 مليون طن يمتد إلى تسعين سنة)، فيما يبلغ احتياطي كازاخستان وتركمانستان من النفط (5,9) مليارات طن، وإذا علمنا أن احتياطي الغاز الطبيعي يبلغ (20) تريليون (ألف مليار) متر مكعب، لاحظنا بعمق أبعاد هذه الثروات، وتكتسب أوزبكستان أهمية اضافية إلى جانب ثرواتها المعدنية تتمثل في إنتاجها من

القطن، وتضيف كازاخستان اليوم بسلاحها النووي، بعداً آخر من أبعاد أهمية (الجمهوريات التركية).

وإلى ذلك فإن العامل السكاني يكتسب أهميته الخاصة، إذ إن معدل النمو الذي يقارب (2,5%) سنوياً، سيؤدي في غضون سنوات، إلى ظهور عملاق سكاني على بقعة جغرافية متصلة ممتدة من حدود الصين إلى تخوم البلقان، وأشبه بخط يفصل بين شمال آسيا وجنوبها، ويجعل منه عنصر توازن واستقرار تجاه الكتل السكانية العرقية الأخرى الكبيرة المجاورة، وبالتحديد الصينيين والهنود والروس.

ثم إن وحدة العرق ووحدة اللغة اللذين يجمعان بين الجمهوريات المذكورة، يمنحان الأتراك (الجدد) وأتراك تركيا، ميزة تفوق على كل من روسيا وإيران لجهة كسب النفوذ في آسيا الوسطى، فعلى الرغم من وجود فوارق طبيعية بين (اللغات) التركية المستخدمة في كل جمهورية على حدة، فإن الخطوط الأساسية لهذه اللغات واحدة، إذ تتقاطع في ما بينها من جهة ومع اللغة التركية المستخدمة الآن في تركيا من جهة أخرى، والتمايزات الموجودة في هذه اللغة من جمهورية إلى أخرى مقابلة بتلك المستخدمة في تركيا، هي نتيجة حتمية للتأثيرات الاستلابية التي مارستها اللغة والثقافة السلافية-الروسية على امتداد أكثر من سبعين عاماً، حتى في طاجكستان، إذ الفارسية هي اللغة الرسمية، فإن نسبة الذين يتحدثون التركية بين السكان تصل إلى نحو (35%).

ومع أن القضية المركزية الاولى (المستجدة) التي أخذت ولا تزال جدلاً واسعاً بين الأتراك، تركزت حول طريقة التعامل مع هذه الجمهوريات، فإن ثمة ما يشبه الإجماع على ضرورة هي اكتشاف وانكشاف الوجه الآخر من العالم التركي في أذربيجان وآسيا الوسطى، التقارب الوثيق معها، في حين يبقى الخلاف منحصراً حول الأسس التي سينشأ عليها هذا التقارب، وعلى مدى تأثير ذلك في الخيارات الأخرى للسياسة الخارجية التركية، وعلى الأوضاع الداخلية.

**ثوابت السياسة الروسية كانت دائماً العمل على تقسيم المجموعة التركية في القوقاز وآسيا الوسطى، وعلى الحيلولة دون وقوعها في شباك الإغراء الذي كانت تركيا تمارسه على هذه المجموعات.**

وهذا ما يوضح لماذا صارت وحدة الأتراك، أو ما يسمى (الجامعة التركية)، عنصراً إضافياً منذ منتصف القرن التاسع

عشر في الملف الثقيل بين الإمبراطوريتين المتنافستين عبر البحر الأسود، فإحدى ثوابت السياسة الروسية كانت دائماً العمل على تقسيم المجموعة التركية في القوقاز وآسيا الوسطى، وعلى الحيلولة دون وقوعها في شباك الإغراء الذي كانت تركيا تمارسه على هذه المجموعات[3].

(3) ميشال نوفل، سياسة الأرض، دار الجديد، بيروت، الطبعة الأولى، 2000، ص 199.

من جهتها لم تترك اسطنبول فرصة، بدءاً من الربع الأخير للقرن التاسع عشر، من أجل استغلال خريطة أتراك روسيا، إلا واستخدمتها في محاولة إضعاف عدوها التقليدي، وإنه لأمر ذو دلالة أن يوافق انحسار النشاطات القومية التركية في تركيا مرحلة الصداقة مع روسيا السوفياتية.

في وقت لاحق، زمن الحرب الباردة، وجدت تركيا وروسيا نفسيهما في معسكرين متعارضين، إلا أن التهديدات الروسية لأنقرة بعد الحرب وتصاعد قوة الجيش السوفياتي جعلت تركيا أكثر حذراً، إلى أن كان ما كان من تفكك الاتحاد السوفياتي، تحت تأثير عوامل عدة بينها صعود قوة المسلمين الروس[4].

(4) المصدر السابق، ص 200.

ومهما يكن من أمر، فإن الطموحات التركية تسعى لإنجاز اختراقات في المجال الجيوبوليتكي المتحاذي والمتداخل مع روسيا، سيظهر بصورة لافتة مع تصاعد النشاط القومي الذي افتتحته الأتاتوركية في بدايات القرن العشرين، وفي هذا المضمار يعرض الباحثون إلى ثلاث محطات بارزة تركت بصماتها على هذا التاريخ.

1. **المحطة الأولى**: تعود إلى العام (1905-1906)، عندما ضعفت روسيا بسبب الهزائم العسكرية في مواجهة اليابان، والعاصفة الثورية التي اجتاحتها، ومما يستحق الملاحظة أن النص الذي عرض للمرة الأولى النظرية السياسية للجامعة التركية، (النظم السياسية الثلاثة)، بقلم التتاري يوسف أكشورا، قد وضع في آذار/مارس 1904، بعد أسابيع من مهاجمة اليابانيين الأسطول الروسي في (بورت أرثر)، فلقد اغتنم أتراك روسيا هذه الفرصة لتنظيم صفوفهم والمطالبة بحقوقهم، وعقدوا مؤتمراً لعموم الأتراك عام 1906، وانشأوا جمعية لمسلمي روسيا، إلا أن القمع ما لبث أن اوقف نشاطاتهم أو اجبرهم على اختيار المنفى.

**الطموحات التركية تسعى لإنجاز اختراقات في المجال الجيوبوليتكي المتحاذي والمتداخل مع روسيا.**

2. **المحطة الثانية**: ثورة أكتوبر الاشتراكية عام 1917، فمنذ الاضطرابات الاولى التي أسفرت عنها ثورة شباط، راح المسلمون في روسيا ينظمون صفوفهم، فعقدوا في أيار/ مايو1917، في موسكو، مؤتمراً إسلامياً كبيراً ضم (900)، مندوب من كل المناطق الإسلامية في روسيا، إلا أن هذه الجهود وصلت إلى خلاف بين مؤيدي قيام اتحاد بين مسلمي روسيا ومؤيدي الفيديرالية، إذ تحطمت محاولات توحيد أتراك روسيا على صخرة العصبيات المحلية والمصالح المتنافرة.

3. **المحطة الثالثة**: (1941-1944)، يؤرخ لها باجتياح الجيوش الألمانية الاتحاد السوفياتي واندفاعها نحو القوقاز، فهذا الاختراق (كَهْرَب) اليمين التركي المتطرف بمختلف فئاته، بما فيها دعاة الجامعة التركية، وحرضه على دعوة حكومة أنقرة إلى التخلي عن حيادها الرسمي والانحياز إلى المحور.

فمع انهيار الامبراطورية السوفياتية، وتشكل جمهوريات مستقلة في آسيا الوسطى، (بما فيها القوقاز)، زالت العقبة الرئيسية من طريق مشروع الجامعة التركية. ومن هنا يجوز أن نتساءل عما إذا كانت فكرة اتحاد الأتراك آخِذَة بالانتعاش مجدداً بفعل هذه الأحداث[5]، منذ تأسيسها عام 1923 أخذت تركيا بسياسة خارجية تقوم على التلازم بين خطين رئيسين:

(5) المصدر السابق، ص202.

1. خطر العلمنة الكاملة للدولة بعد سقوط سلالة الخلافة العثمانية.

2. خطر الانتماء والولاء إلى المنظومة السياسية والأمنية في الغرب.

بقي التحدي الأعظم من ذلك الموروث هو ذاك الآتي من روسيا الشيوعية بعد التحديين التقليديين الأرمني والكردي، وعلى الرغم من التزام تركيا مبدأ الحياد في الحرب العالمية الثانية ورفعها شعار (سلام في الوطن.. سلام في العالم)، لم تفتأ أن اصطفَّت إلى جانب المعسكر الغربي الأميركي الأوروبي في مواجهة المعسكر الشيوعي بقيادة الاتحاد السوفياتي، ومع هذا الاصطفاف باتت تركيا واحدة من أبرز الجبهات المتقدمة في وجه التمدد السوفياتي، وبذلك تكون قد عادت إلى نشأتها الأولى، إذ كانت الامبراطورية العثمانية تمكث على الطرف النقيض للقيصرية الروسية.

بدءاً من الحرب الباردة وحتى ختامها في مستهل تسعينيات القرن العشرين، حرصت تركيا على الذهاب بعيداً في الخيار الغربي، وإن أفضى في الكثير

من تداعياته إلى القطيعة السلبية مع المحيط الاقليمي ودول الجوار، فقد مضت لتعترف بالكيان الاسرائيلي في فلسطين، ولتنخرط كعضو فاعل في حلف الناتو ثم لتبدأ منذ خمسينيات القرن المنصرم رحلة شاقة في الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي من دون جدوى، وهكذا لم يطرأ أي تحول جوهري في الهوية لتركيا، إلا مع وصول حزب العدالة والتنمية إلى السلطة في نوفمبر (تشرين الثاني 2002)، وسط مناخ عارم من صعود الإسلام السياسي، شمل الجغرافيات الإسلامية المحيطة بتركيا، وخصوصاً تلك التي انفكت عن الاتحاد السوفياتي، وهي تنتمي في معظمها إلى ما يسمى (الجمهوريات المسلمة ذات الأصل التركي).

## ثانياً: آسيا الوسطى بوصفها عمقاً جيو ـ استراتيجياً

يستخدم تعبير آسيا الوسطى جغرافياً للدلالة على أقصى مناطق القارة الآسيوية بعداً عن الأقاليم البحرية المحيطة بالقارة، وتضم آسيا الوسطى المنطقة الممتدة باتجاه الشمال ـ الجنوب من سيبريا حتى الهمالايا، التي تفصلها عن أقاليم السهوب الهندية، وفي اتجاه الشرق- الغرب المساحة الممتدة من خط الأورال ـ قزوين حتى منغوليا والصين، وتعد هذه المنطقة واحدة من أكثر النطاقات الجغرافية بعداً عن المحيطات في العالم. ولذا، فهي تمتاز بخصائص برية، وأصبحت إقليمياً جيوسياسياً ومركزاً للنطاقات التوسعية للإمبراطوريات الأورآسيوية، وتُعد كل من إمبراطوريتي جنكيز خان وتيمورلنك من الأمثلة التاريخية واضحة الدلالة على هذه الخاصية الجيوسياسية[6].

(6) أحمد داوود أوغلو، العمق الاستراتيجي: موقع تركيا ودورها في الساحة الدولية، ترجمة محمد جابر ثلجي وطارق عبد الجليل، الدار العربية للعلوم - بيروت، مركز الجزيرة للدراسات، الدوحة، ط1، 2010، ص 492.

لقد نظرت القوى التاريخية لآسيا الوسطى بوصفهاها منطقة محورية، في هذا الصدد يستعيد (أحمد داوود أوغلو) في كتابه المعروف (العمق الاستراتيجي)، وقد أشار إليه فيلسوف الجغرافيا السياسية البريطاني هالفورد ماكندر حول ما يسميه بـ (التوسع الإمبريالي الروسي)، الذي قطع أوراسيا صوب الشرق والجنوب، بداية من القرن السادس عشر، ووصف هذا الإقليم وسهوله الممتدة حتى أوروبا الشرقية بوصفها منطقة محورية (Heartland)، أي الأرض التي تتوسط القارة وتشكل نقطة الجاذبية فيها، وبحسب إحالات أوغلو أن هذا النمط من المقاربة يدخل ضمن الفروض الأساسية للجيوسياسية البرية الحديثة، وهو ما تجلى بشكل أكبر في التنافس

**كان الحزام الجنوبي لهذه المنطقة ميداناً للتنافس بين روسيا وإنكلترا في القرن التاسع عشر فيما عُرف باللعبة الكبرى.**

الاستراتيجي الحديث على أورآسيا، كان الحزام الجنوبي لهذه المنطقة ميداناً للتنافس بين روسيا وإنكلترا في القرن التاسع عشر فيما عُرف باللعبة الكبرى، وكان ميداناً لسجالات الحرب الباردة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي في النصف الثاني من القرن العشرين، وهو ما حفظ لهذه المنطقة أهميتها الجيوسياسية النابعة من خصائصها الجغرافية.

وبالرغم من وجود عدد من العناصر المشتركة بين القوتين العُظميين في تعريفاتهما ومحدداتهما الجغرافية والجيوسياسية، قامتا بتطوير رؤية خاصة بهما بإزاء الحدود الجغرافية للمنطقة، ولأن كانت الاستراتيجية الإنجليزية، وهي تقطع الحزام الجنوبي لآسيا في الاتجاه الشرقي- الغربي وتقسمه إلى مستعمرات، تحدث قطيعة بين مستعمراتها في الشرق الأوسط والهند مستعمراتها التابعة لمراكزها الاستعمارية الأخرى، فإنها كانت من ناحية أخرى تبني خطوط التقاء متداخلة[7].

(7) المصدر السابق.

ووفقاً للتصور الجيوسياسي لدى قادة روسيا، عدّت آسيا الوسطى (SerdnyayaAziya) جزءاً من الشرق الأوسط (Serdniy Vostok) الواقع بين الشرق الأدنى (Blizhniy Vostok)، الممتد من المغرب حتى الخليج العربي، وبين الشرق الأقصى (Dal'niy Vostok)، المطل على سواحل المحيط الهادي، وعلى هذا النحو تبدأ حدود الشرق الأوسط وآسيا الوسطى، من القوقاز والخليج العربي غرباً وتمتد شرقاً إلى منغوليا ثم جنوباً حتى شبه القارة الهندية. ولم يُستخدم هذا التقسيم بوصفه خطاً جيوسياسياً فاصلاً وحسب، بل استُخدم أيضاً بوصفه خطاً جيو- ثقافياً، يفصل بين الدولة العثمانية من جهة وبين إيران والهند من جهة ثانية.

كان (الكسندر فون هومبولدت) Alexander von Himboldt استخدم تعبير آسيا المركزية أول مرة عام 1829، وبعد ان انتشر استخدام هذا التعبير في الأدبيات الألمانية والفرنسية، انتقل إلى اللغة الروسية. وقد استُخدم هذا التعبير للدلالة على كل الأراضي الآسيوية التي ليست لها سواحل بحرية؛ بحيث أصبح المقابل الجيوسياسي لمصطلح آسيا المركزية هو محور روسيا الأوروآسيوي؛ على حين استُخدم تعبير آسيا الداخلية لتوصيف جيو- اثني أكثر منه توصيفاً جيوسياسياً، ويستخدم للدلالة على المنطقة الواقعة بين خطي عرض (40 و50)، ليشمل تركستان ومنغوليا[8].

(8) المصدر السابق، ص 493.

تحكمت روسيا والاتحاد السوفياتي في محور أورآسيا، جغرافياً وجيوسياسياً، في القرن التاسع عشر، إذ المواجهة مع إنكلترا، في سياق ما عرف باللعبة الكبرى. وكذلك في النصف الثاني من القرن العشرين ضد الولايات المتحدة في سياق الحرب الباردة.. على حين ظلت آسيا الوسطى، التي شكلت أهم مرتكز استراتيجي لروسيا والاتحاد السوفياتي في الجنوب والشرق، عنصراً مهملاً. وكان أهم تغير طرأ على الوضع الجيوسياسي لآسيا الوسطى مع انتهاء الحرب الباردة هو ظهور فراغ جيوسياسي مهم مع تحلل التوازنات الجيوسياسية الساكنة في المناطق التي تقع على خط تشكل هذه التوازنات، وفي مقدمتها منطقة آسيا الوسطى.

**أهم تغير طرأ على الوضع الجيوسياسي لآسيا الوسطى مع انتهاء الحرب الباردة هو ظهور فراغ جيوسياسي مهم.**

سمح هذا الفراغ الجيوسياسي بتبلور ساحة مناورة هامة أمام اللاعبين الاقليميين في سياستهم الأورآسيوية، وكذلك أمام اللاعبين المنتمين لآسيا الوسطى، ونتج عنه ظهور معيار استراتيجي جديد أدى إلى تفعيل الديناميات الداخلية لآسيا الوسطة ربما للمرة الأولى منذ مئتي عام. وتُعد عملية إعادة بناء آسيا الوسطى من الناحية الجيوسياسية الدينامية مثار نقاش واسع، إذ تتداخل في هذه العملية التوازنات العالمية والقارية والإقليمية، ويجري تبادل التأثير والتأثر فيما بينها. وسيظل النفوذ الذي ستمتلكه الدول ـ ومنها تركيا ـ في هذه المنطقة مرهوناً بما تقوم به هذه الدول من دور في عملية إعادة البناء الجيوسياسي لمنطقة آسيا الوسطى[9].

(9) أوغلو، المصدر السابق، ص 494.

لم تكن المنطقة الوسطى في العقل الجيوبولتيكي الروسي سوى روسيا نفسها، وهذه الصفة للجغرافيا الروسية سوف تجعلها تحتل قيمة متعالية في وجدان الروس، فهي أدنى إلى الأرض المختارة، التي تستمد من الأسطورة والدين والايديولوجيا غذاءها وديمومتها، ومثل هذا البعد الميثولوجي لموقعيه روسيا لم تقتصر مفاعيله على الحقبات القيصرية الممتدة عبر الزمن، وإنما سيعود ليحيا على الدوام في الأحقاب الحديثة، منذ الحقبة اللينينية إلى ما تشهده اليوم مع البوتينية المعاصرة.

**هذا البعد الميثولوجي لموقعيه روسيا لم تقتصر مفاعيله على الحقبات القيصرية الممتدة عبر الزمن، وإنما سيعود ليحيا على الدوام في الأحقاب الحديثة.**

تمثل روسيا من وجهة النظر هذه كتلة قارية هائلة تتماهى مع الأوراسية نفسها، وبعد استصلاح سيبيريا وتكاملها تطابقت

روسيا مع مفهوم الـ Heartland الجيوبولتيكي أي (الأرض المتوسطة) في القارة، وقد عرَّف (ماكيندر) المدى المكاني الروسي الكبير بأنه (المحور الجغرافي للتاريخ)، وتمثل روسيا الناحية الجغرافية وسطحية الأرض، ومن الناحية اللغوية، المناخية، الثقافية والدينية الوحدة النسيجية للغرب الأوراسي والشرق الأوراسي، ووظيفتها الجيوبولتيكية تؤدي إلى إجمال التوجهات الغربية والشرقية، أو الحديث عنها بالوساطة، فروسيا ـ شيء ثالث، مستقل وخاص ـ لا هي الشرق ولا هي الغرب.

وقد تحدث الأوراسيون الروس عن طريق تفسيرهم الثقافي للوضع (المتوسط) لروسيا، عن الثقافة الخاصة (للإمبراطورية المتوسطة)، إذ تُشطب المواجهات الجغرافية والجيوبولتيكية في تركيبها الروحي، العمودي، ومن وجهة النظر الاستراتيجية البحتة تتماهى روسيا مع الأوراسية نفسها، في الأقل لأن أراضيها بالذات وسكانها وتطورها الصناعي ـ التقني تتمتع جميعاً بالحجم الكافي لتكون أساساً للاستقلالية القارية، وتالياً للاكتفاء الذاتي ولتصبح أساساً للتكامل القاري التام، وهو ما ينبغي أن يجري، وفق القوانين الجيوبولتيكية، لكل (جزيرة)، بما في ذلك (الجزيرة العالمية) (World Island) نفسها أي الأوراسيا.

**جميع الدول والأراضي الاوراسية الأخرى هي بالنسبة إلى روسيا ساحلية «Rimland» فروسيا (محور التاريخ).**

وبحسب عالم الجيوبوليتيك الروسي الكسندر دوغين، فإن جميع الدول والأراضي الاوراسية الأخرى هي بالنسبة إلى روسيا ساحلية «Rimland» فروسيا (محور التاريخ)، ما دامت الحضارة تدور حولها مبدعة صيغها الزاهرة، المعبّرة، المكتملة لا في مصبها القاري المبدع للحياة بل في (بقعتها الشاطئية)، في الشريط الحرج، إذ يتجاوز مدى اليابسة مع مدى الماء، البحر أو المحيط، ومن وجهة النظر الاستراتيجية تبدو روسيا بنياناً مكانياً مستقلاً يتماهى أمنه واستقلاليته مع أمن واستقلالية قارة بكاملها.

وهذا ما لا يمكن قوله عن أي دولة أوراسية أخرى ـ لا عن الصين، ولا ألمانيا، ولا فرنسا ولا الهند. وإذا كانت الصين أو ألمانيا أو فرنسا أو الهند أو غيرها تستطيع، في علاقاتها مع جيرانها الساحليين أن تتصرف كقوة قارية، فإنها تبقى بالنسبة لروسيا (شريطاً ساحلياً)، أو Rimland مع كل التبعات الاستراتيجية، الثقافية والسياسية. روسيا وحدها القادرة على أن

تتعرف باسم الـ Heartland بكل حجتها الجيوبولتيكية الكاملة[10].

(10) الكسندر دوغين، أسس الجيوبولتيكا، مستقبل روسيا الجيوبولتيكي، ترجمة وتقديم عماد حاتم، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2004، ص 207.

في مقابل هذه الأبعاد الميثولوجية التي يختزنها العقل الجيو- استراتيجي الروسي سنجد كيف تمتلئ ذاكرة الأتراك بما فعله القياصرة بجغرافيات متجذرة في وعيهم الامبراطوري فضلاً عن وجدانهم القومي وإيديولوجيتهم الدينية، وتأسيساً على ذلك فإنهم (الأتراك) يستذكرون جيداً حوادث منتصف القرن السادس عشر لما قام القيصر الروسي ايفان الرابع باحتلال الضفة الشرقية للفولغا حتى اصطراخان، مما هدّد العثمانيين وخانيات آسيا الوسطى وجعل العثمانيين يتقربون إلى الأوزبك.

في الوقائع إن خانيات آسيا الوسطى لم يكن بمقدورها أن تؤسس العلاقة مع الشرق الأدنى عبر إيران، ولذلك فقد كانت تعتمد على الطريق الذي يمر من شمال بحر قزوين وينتهي عند موانئ القرم، ولما أصبح هذا الطريق تحت سيطرة الروس توجه خانات آسيا الوسطى، وخاصة خان خوارزم، بنداءاتهم المتكررة للسلطان العثماني لكي يحرّر لهم طريق الحج والتجارة من الروس[11].

(11) خليل إينالجيك، تاريخ الدولة العثمانية مَنْ النشوء إلى الانحدار، ترجمة: محمد الأرناؤوط، دار المدار الإسلامي، ط اولى، 2002، ص 63.

لم يأخذ العثمانيون بالحسبان أن التوسع الكبير لموسكو، التي كانت حتى ثلاثينيات القرن السادس عشر يعد قوة من الدرجة الثانية في أوروبا الشرقية، ويمثل خطراً عليهم في الشمال، بل أنهم أيدوا التحالف بين موسكو وخانية القرم ضد الذين كانوا يهددون السيادة العثمانية في القرم، ووصل الأمر بالعثمانيين في عام 1497م إلى حد السماح للروس بالتجارة في أراضي الامبراطورية العثمانية، ولكن حين اندلعت الحرب في ثلاثينيات القرن السادس عشر بين أمير موسكو الكبير وخان القرم حول وراثة بعض الأراضي، التي كانت في السابق تابعة للقبيلة الذهبية في حوض الفولغا، حاول الخان أن ينبِّه العثمانيين إلى هذا الخطر.

وهكذا اقتنع العثمانيون حوالي منتصف القرن السادس عشر بأن توسع الروس يهدد مواقعهم في حوض البحر الاسود والقوقاز، وفي غضون ذلك أعلن إيفان الرابع نفسه قيصراً في عام 1547، وقام بإخضاع الخانيات المسلمة على شواطئ حوض الفولغا (خانية قازان في عام 1552 وخانية اصطراخان في 1554 ـ 1556)، وتوسع في شمال القوقاز

**اقتنع العثمانيون حوالي منتصف القرن السادس عشر بأن توسع الروس يهدد مواقعهم في حوض البحر الاسود والقوقاز.**

حتى نهر تره ك Terek ليقيم بهذا أسس الامبراطورية الروسية.

وقد وجد القيصر الروسي في هذه المنطقة حلفاء له في أوساط الشركس والنوغاي، على حين وافق في الغرب أمير مولدافيا بتروارش على وضع نفسه تحت حماية موسكو في عام 1543، وتُوجّ هذا التوسع الروسي عام 1559 بمحاولة قائد القوازق ديمتراش الاستيلاء على قلعة آزوف، التي كانت تمثل آخر موقع حدودي للإمبراطورية العثمانية باتجاه الشمال، وهكذا بعد هذه الانتصارات تمكنت روسيا، التي تحولت إلى قوة من الدرجة الاولى، من وراثة ممتلكات القبيلة الذهبية لتواصل توسيع نفوذها على حساب الممتلكات العثمانية في القوقاز وحوض البحر الأسود، ولقد استمر الوضع على هذا النحو إلى حوالي سنة 1566، حين لم تعد الحرب مع آل هابسبورغ ضرورية.

إذ قرر العثمانيون حينئذ أن يوجهوا اهتمامهم إلى الشمال، وقد وضعت لهذا الغرض خطة جريئة تتضمن أن يقوم الجيش والأسطول البحري بالتقدم على امتداد مجرى نهر الدون إلى أقرب نقطة له من نهر الفولغا، إذ تشق قناة لتربط النهرين، وذلك لكي يتمكن الاسطول العثماني من الوصول إلى اصطراخان عبر الفولغا، وبعد طرد الروس من اصطراخان كانت الخطة تقضي بأن يتابع الاسطول العثماني تقدمه إلى بحر قزوين لكي يدعم الجيش العثماني في إيران، إلا أن هذا التهديد العثماني ما لبث أن وحّد الجارين روسيا وإيران.

ففي شتاء 1568 أرسل القيصر الروسي مبعوثاً إلى إيران يحمل اقتراحاً لتشكيل تحالف مشترك ضد العثمانيين، وفي الوقت نفسه كان البابا غريغوري الثالث عشر يضع القيصر والشاه في خططه لحرب صليبية جديدة ضد العثمانيين، وفي عام 1569، فشلت محاولات العثمانيين لشق القناة وحصار اصطراخان، وتعرض الصدر الأعظم صوقوللو محمد باشا الذي وضع الخطة إلى انتقادات من معارضيه، الذين طالبوا بتمركز القوات العثمانية في البحر الأبيض عوضاً عن مواصلة الحرب المكلفة والمجهدة في الشمال[12].

(12) المصدر السابق، ص 63.

كان القيصر نفسه واعياً إلى أنه في هذه اللحظة لا يستطيع أن يتحدى العثمانيين، ومن هنا فقد تبنى القيصر الروسي سياسة سلم وصداقة مع السلطان، لكي يحافظ على مواقعه في حوض الفولغا، وهكذا فقد تخلى

السلطان للقيصر عن قازان واصطراخان، ولكنه ادعى السيادة العثمانية على خانية القرم وبلاد الشركس والقوقاز، وقد طالب السلطان الروس الانسحاب من هذه المناطق وأن يفتحوا الطريق الممتد من آسيا الوسطى إلى القرم، إلا أن السلطان لم يصر على تنفيذ ذلك ولم يستخدم القوة لذلك لأنه كان مشغولاً في حربه مع أوروبا الغربية في البحر المتوسط، ففي 1570 فتح قبرص، إلا أن الأسطول العثماني تعرض إلى خسائر مدمرة في موقعة ليبانتو في 1571.

**أن البابا حرّض روسيا على الانضمام إلى النمسا وبولونيا لتصفية الحساب مع الأتراك.**

وعلى الرغم من أن البابا حرّض روسيا على الانضمام إلى النمسا وبولونيا لتصفية الحساب مع الأتراك، لم يرغب القيصر الروسي في نقض الصلح المعقود، وقد كان القيصر الروسي يدعم مواقعه عند شواطئ الفولغا، ولذلك كانت تخدمه سياسة المماطلة، فقد ماطل القيصر الروسي باستمرار ولم يسحب أبداً قواته من القلاع التي بناها في السفوح الشمالية للقوقاز.

وهكذا فضلت الحكومة العثمانية أن تترك أمر الحرب مع روسيا للحاكمين التابعين لها، لخان القرم وأمير ترانسلفانيا، ولما أصبح القيصر الروسي في 1572 مرشحاً للعرض البولوني، بادر العثمانيون أولاً إلى دعم (هنري فاليوس) ثم امير ترانسلفانيا (ستيفان باتوري)، وقد نجحوا في إيصال الامير ستيفان للعرض البولوني، الذي بادر إلى شنّ حرب قاسية ضد موسكو تمكن فيها من استعادة كل الأراضي التي احتلها القيصر الروسي في الغرب[13].

(13) المصدر السابق، ص 64.

## ثالثاً: عقدة البلقان

قد تكون السمة الفارقة لفضاء العلاقة الروسية ـ التركية، هي تلك التي تبدو فيها الحروب عاملاً إحيائياً للتاريخ المشترك، وإذا كانت غاية الحروب الثلاثة عشر التي اشتعلت بينهما على امتداد خمسة قرون (1558 ـ 1918)، رسم ثوابت جيوسياسية مسترة، فقد جاءت أزمنة الحداثة لتظهر عكس ذلك، فمنذ بدايات القرن العشرين ستدخل شبه جزيرة البلقان كعقدة متجددة للنزاع الجيوبولتيكي، وبحسب معطيات الفكر الاستراتيجي الروسي تدخل العقدة البلقانية في نطاق الصيغة الأساسية للبناء الجيوبوليتكي (الجنوب روسي)، وفيها توجد أربع مناطق أساسية:

**معطيات الفكر الاستراتيجي الروسي تدخل العقدة البلقانية في نطاق الصيغة الأساسية للبناء الجيوبوليتكي (الجنوب روسي).**

1. البوسنية ـ الكرواتية (الأكثر تطرفاً نحو الغرب، ذات توجه أطلسي rimland صاف).

2. الصربية (وتمتد أكثر نحو الشرق، ذات توجه أوراسي واضح).

3. البلغارية (الأكثر توغلاً نحو الشرق، تحمل عناصر الصيغة الليفانتية (وهي صيغة تمثلها مجموعة أثنية تتحدث اللغة العربية وقوامها أحفاد الأوروبيين الذين زحفوا على بلاد الشام، وتذاوبوا مع أهلها في الحروب الصليبية)، وهذا الأنموذج تمثله تركيا بالصورة الأوضح ـ التركيب الأوراسي القاري).

4. اليونانية (الأرثوذكسية)، لكنها داخلة في المعسكر الأطلسي[14].

(14) الكسندر دوغين، أسس الجيوبوليتكا، مستقبل روسيا الجيوبوليتيكي، ترجمة وتقديم د. عماد حاتم، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت 2004، ص 397.

إن (النظام الجيوبولتيكي الجديد) (القاري والأوراسي) في هذه المنطقة (كما هو الأمر في كل مكان)، قائم على أساس تشجيع كافة العمليات التكاملية وفقاً لمحور الشمال ـ الجنوب، وهذا يعني ضرورة العمل، وفي الحدود القصوى، على تشجيع العلاقات بين بلغراد ـ أثينا وصوفيا ـ أثينا، وبما أن منطقة البلقان تمثل بمجموعها تكويناً موزاييكياً وعلى غاية من التعقيد فإن مشروع الفيدرالية السلافية المشتركة والمكونة من صربيا، بلغاريا، مكدونيا، الجبل الأسود، والبوسنة الصربية، والذي يمكن أن يكون الحل الأمثل من الناحية النظرية، بعيد عن التطبيق في وقت قريب.

**أن منطقة البلقان تمثل بمجموعها تكويناً موزاييكياً وعلى غاية من التعقيد.**

وهو يفترض، عملية التكامل العرضاني الخطيرة والمحفوفة دوماً بالمشاكل في مثل هذه المناطق المتشابكة من الناحية الأثنية، فلنتذكر على سبيل المثال حروب البلقان (1912 ـ 1913) الضارية في بداية القرن بين الدول الأرثوذوكسية صربيا، بلغاريا واليونان والمشكلة الدائمة الحضور لمكدونيا، التي كانت (تفاحة الشقاق) داخل الدول السلافية القارية والأوراسية المحتملة.

تشكل قضية سيادة أوكرانيا بالنسبة للسياسة الروسية ظاهرة، تبلغ سلبيتها درجة إنها يمكن من الناحية المبدئية أن تثير نزاعاً مسلحاً، وباستثناء شاطئ البحر الأسود من اسماعيل، وحتى كيرتش تستقبل روسيا شريطاً ساحلياً لا يُعرف من صاحب السيادة الحقيقية عليه، ويبلغ درجة من الطول تجعل

وجوده نفسه في صورة دولة طبيعية ومستقل أمراً يبعث على الشك، إن البحر الاسود ليس تعويضا عن الخروج إلى (البحار الدافئة)، وتسقط أهميته الجيوبولتيكية سقوطاً حاداً بسبب السيادة الأطلسية الوطيدة على البوسفور والدردنيل.

**إن البحر الاسود ليس تعويضا عن الخروج إلى (البحار الدافئة)، وتسقط أهميته الجيوبولتيكية سقوطاً حاداً بسبب السيادة الأطلسية الوطيدة على البوسفور والدردنيل.**

إلا أنه يمكن، في الأقل من حماية المناطق الوسطى من التوسع المحتمل للنفوذ التركي، إذ يمثل حدوداً مريحة إلى أبعد الدرجات مأمونة وزهيدة التكاليف، ولهذا كان ظهور حالة جيوبولتيكية جديدة على هذه الأراضي (يحاول فوق ذلك الدخول في حلف الناتو)، يعد شذوذاً مطلقاً لا يمكن أن تؤدي إليه إلا خطوات غير مسؤولة على الاطلاق من وجهة النظر الجيوبولتيكيية.

أوكرانيا كدولة مستقلة ذات مطامح ترابية معينة تمثل خطراً داهماً على الأوراسيا كلها، وبدون حلّ المشكلة الأوكرانية يغدو الحديث عن الجيوبولتيكياً القارية أمراً عبثياً. على العموم وهذا لا يعني أنه ينبغي الحد من استقلال أوكرانيا الذاتي أو الثقافي ـ اللغوي أو الاقتصادي، وأنه يجب أن تصبح مجرد قطاع اداري للدولة المركزية الروسية، (مثلما كان الأمر عليه إلى حد ما في الامبراطورية القيصرية أو في الاتحاد السوفياتي)، إلا أن أوكرانيا من الناحية الاستراتيجية يجب أن تكون إسقاطاً لموسكو في الجنوب والغرب.

من هنا فإن الثابت الاساسي المطلق للسياسة الروسية على شواطئ البحر الاسود، هو السيطرة الشاملة وغير المحددة بأي شيء لموسكو، على مجموع امتداد ذلك الشاطئ من الاراضي الاوكرانية وحتى الأراضي الأبخازية، ـ وعلى ما يبين (الكسندر دوغين) ـ أن بإمكان الروس تفتيت هذه المنطقة، قدر ما يريدون وفقاً للمظهر الاثنو ـ ثقافي، ومع الأخذ بالحسبان الاستقلال الاثني والمذهبي لروس القرم وللتتر والكازاك والابخازيين والجورجيين، على أن يتم ذلك كله بإزاء السيطرة المطلقة لموسكو على الوضع العسكري والسياسي، إذ الشاطئ الشمالي للبحر الاسود يجب أن يكون أوراسيا بصفة استثنائية وأن يخضع لموسكو بصفة مركزية[15].

(15) الكسندر دوغين، أسس الجيوبوليتيكا، مصدر سبق ذكره، ص 399.

**الشاطئ الشمالي للبحر الاسود يجب أن يكون أوراسيا بصفة استثنائية وأن يخضع لموسكو بصفة مركزية..**

لا تقف الرؤى القومية الروسية المتعالية عند حدود توصيف

الخصائص الاستثنائية ليكنونتها الجيوبولتيكية، بل هي تمضي إلى توصف معاكس للتموضع التركي، حتى يصل الأمر إلى خلع نعوت على الدولة الأتاتوركية الحديثة، أشد وقعاً مما انطوى عليه الخطاب الثقافي الروسي تجاه العدو العثماني، وبحسب هذا التوصيف تظهر تركيا العثمانية الحديثة لا كامتداد للإمبراطورية بل كصورة هزلية لها، وبدلاً من البنية الإسلامية الامبراطورية المتعددة المراكز الكثيرة القوميات، أقام كمال أتاتورك الصيغة الشرقية للـ Nation - Etat الفرنسية الدولة ـ الأمة، ذات البناء العلماني ـ الإلحادي الفج والقومي الضيق.

**تمثل تركيا وهي عضواً في الناتو اليوم- المخفر الأمامي الشرقي للأطلسية والعولمة.**

فكانت تركيا الدولة الأولى في الشرق التي قطعت العلاقات مع تقاليدها الروحية والدينية والجيوبولتيكية، ومن الناحية الواقعية تمثل تركيا وهي عضواً في الناتو اليوم ـ المخفر الأمامي الشرقي للأطلسية والعولمة ـ (النطاق الصحي) بين الشرق الآسيوي والعالم العربي، والأنموذج الجيوبولتيكي الي تقدمه تركيا ـ هو التكامل مع العالم الغربي والحضارة العولمية الإلحادية، ولكن بما أن تركيا نفسها ـ الطامحة إلى الدخول في (أوروبا) لا تزال بعد المستعمرة (السياسية ـ الايديولوجية) للولايات المتحدة، وليست العضو الحقيقي في المدى الكبير الاوروبي (وهو ما كان يمكن أن يفترض من الناحية النظرية مشاركة تركيا في معسكر أوروبا الوسطى)، فإن التوجه نحو تركيا يعني بالنسبة إلى بلدان (الخارج القريب)، تكاملاً مع المشروع العولمي بين كتلة أوراسيا القارية الشرقية (مع إيران والصين والهند)، وبين العالم العربي الذي يهدد بالانفجار، والذي يتطلع دوماً إلى التخلص من القيادة العولمية العملية[16]، لكن بقطع النظر عن حدة هذه الرؤية أو واقعيتها، فإن ثمة أحكاماً تبدو جائزة في ظل الطموح التركي المفتوح على مواصلة لعبتها في ما وراء الحدود.

(16) المصدر السابق، ص 492.

مع انهيار الاتحاد السوفياتي وانفراط حلف وارسو، لم تتضاءل أهمية تركيا، التي كانت العضو الوحيد في المعسكر الغربي ذا العمق الآسيوي في حلف الناتو في الحرب الباردة، بل إنها اكتسبت سمات إضافية في ظل المعادلات الجديدة المتداخلة، فقد كان لتوسع ساحة التدهور الاستراتيجي الدولي في ما بعد فترة الحرب الباردة باتجاه العمق الأورآسيوي وممرات البلقان والقوقاز، أن يدفع حلف الناتو للتوجه شرقاً.

وبينما كانت الولايات المتحدة تعمل على تكليف حلف الناتو بمهام دولية أكثر شمولية في الفترة الجديدة، أخذت تنظر إلى تركيا بوصفها حليفاً ذا وضعية مؤثرة في العمق الآسيوي، وتدرك الولايات المتحدة إنها اضطرت طوال فترة الحرب الباردة لإقامة توازن استراتيجي مع عدة لاعبين عند الخط الجنوبي لأورآسيا، إذ مركز منطقة الحزام الطرفي، ولما كان ذلك الخط الجنوبي يضم أيضاً العراق وإيران، وهما الدولتان التي طبقت الولايات المتحدة عليهما سياسة الاحتواء المزدوج لفترة ما، برزت أهمية تركيا في التوازنات الاستراتيجية في المنطقة واكتسبت صفة الشريك الاستراتيجي، وأدى وجود روسيا في الشمال والشمال الغربي لتوازنات آسيا، ووجود الصين في الشرق، ووجود تمركز للقوة في غرب آسيا ضد قوة الهجوم الهندي في الجنوب، الولايات المتحدة باتجاه تطوير سياسات تستند إلى وجود تركيا في هذه المنطقة، التي تعج بالمخاطر الاستراتيجية الجيو ـ اقتصادية والجيو ـ سياسية[17].

(17) احمد داوود اغلو، المصدر السابق، ص 528.

لكن تعامل الولايات المتحدة مع تركيا بوصفها شريكاً استراتيجياً إقليمياً هاماً في توازنات أورآسيا، سيشجع تركيا على الولوج إلى التوازنات الآسيوية مدعومة بلاعب عالمي، وأخذت أهمية ذلك التقارب الاستراتيجي تزداد بالنسبة لتركيا، لا سيّما في الفترات التي شهدت توتراً في العلاقات بين الاتحاد الاوروبي وتركيا، أو التي شهدت تصاعداً في التنافس التركي ـ الروسي، وبعد قمة هلسنكي، التي حدد فيها الاتحاد الأوروبي الدول الجديدة المرشحة لنيل عضويته، باتت تركيا في حاجة إلى اعادة ضبط توازناتها مع الولايات المتحدة ـ الاتحاد الاوروبي فيما يتعلق بسياساتها تجاه آسيا الوسطى، وهو الشأن في سياساتها الاقليمية الاخرى، وأدى بلورة سياسة تركيا في الشرق الاوسط، التي نشطت في منتصف عقد التسعينيات من القرن العشرين، إلى ضرورة تحقيق توازن بين المقاربة القائمة على محور الولايات المتحدة ـ إسرائيل، وهو المحور المؤثر في سياسة آسيا الوسطى، وبين خيارات الاتحاد الأوروبي في آسيا الوسطى، إن نمط انعكاس التوازنات العالمية للولايات المتحدة ـ الاتحاد الأوروبي ـ روسيا على آسيا الوسطى في الفترة المقبلة، سيكون له أثر مهم في سياسات تركيا تجاه هذه المنطقة.

## رابعاً: تركيا في لعبة ما وراء الحدود

ويراهن العقل السياسي التركي، وخصوصاً في الحقبة التي تولى فيها حزب العدالة والتنمية رأس السلطة، على فرصة تاريخية للدخول بقوة في لعبة توازنات ونفوذ تتجاوز الجغرافيا التقليدية للبلاد.

لأن تمكنت تركيا ـ تبعاً لهذا الرهان ـ من متابعة إيقاع هذه التوازنات العالمية ومتغيراتها المحورية متابعة جيدة، فسوف تتمكن من أن تصبح لاعباً قادراً على التأثير في توجهات القوة داخل معادلة آسيا الوسطى، في هذا الوضع، ستساعد كثافة وفاعلية علاقات تركيا مع اليابان والصين على توسيع ساحة مناورة تركيا داخل هذه التوازنات، وفي المقابل فإن تركيا لم تستطع الاستفادة المثلى من ساحة المرونة الاستراتيجية، ولم تستطع تحقيق التوافق بين العوامل التكتيكية والاستراتيجية، وتضاءلت قدراتها على المناورة الدبلوماسية، فقد تسفر التحالفات المحتملة وتوجهات القوية داخل هذه التوازنات العالمية عن نتائج شديدة السلبية لتركيا، ولذا، يجب على تركيا القيام بمتابعة دقيقة لنمط العلاقات المتناقضة بين القوى العالمية والقارية والإقليمية، وتوازنات هذه العلاقات[18].

**يجب على تركيا القيام بمتابعة دقيقة لنمط العلاقات المتناقضة بين القوى العالمية والقارية والإقليمية، وتوازنات هذه العلاقات..**

(18) المصدر السابق.

ما كاد الحادث الأوكراني ينحو باتجاه التحول إلى قضية جيو ـ استراتيجية، حتى أخذت إرهاصات التوتر الروسي التركي تطل من جديد، فالواقع المستجد لم يكن بالنسبة إلى القيادتين الروسية أمراً عارضاً، بل هو يقع في عمق استراتيجيتهما العليا، فعلى رغم التحسينات الوازنة التي شهدتها العلاقات المشتركة مع وصول حزب العدالة والتنمية إلى الحكم عام 2002، عادت بوادر الحساسية بين الفضاءين لتكتسب صورتها السلبية المألوفة. فأوكرانيا حاضرة في العقل الاستراتيجي لروسيا حضوراً غير عادي وسبق وأشرنا، وثمة من ينبري إلى تظهير منزلة استثنائية لموقعيه أوكرانيا في رؤية فلاديمير بوتين الجيو ـ استراتيجية، وسط الفوضى العارمة التي تشهدها التحولات الدولية والاقليمية.

عند علماء الجغرافيا السياسية تسمى أوكرانيا بالحافة، أو التخوم، ذلك لأنها تقع على سهل فسيح، تصل مساحته إلى أكثر من (600) ألف كيلومتر مربع، وهي أكبر دولة في أوروبا خارج الاتحاد الاوروبي، وعدت دائماً حافة الشرق

**أوكرانيا القرن العاشر الميلادي هي المهد الأول للأرثوذكسية الروسية.**

الأوروبي ونهاية غرب القارة، وقد ازدادت الأهمية الاستراتيجية لأوكرانيا بعد انهيار الكتلة الشرقية (1989 ـ 1991)، وعندما أعلنت استقلالها عام 1991، لم تكن روسيا في وضع يسمح لها بتحدي هذا الاستقلال، بأي صورة من الصورة.

ولكن أوكرانيا تعني الكثير لروسيا بل وللقومية الروسية، كييف ومحيطها وليس موسكو هي أول موطن للروس، وأوكرانيا القرن العاشر الميلادي هي المهد الأول للأرثوذكسية الروسية، وبالرغم من أن سياسة القوميات السوفييتية جعلت أوكرانيا إحدى الوحدات الفيدرالية للاتحاد السوفييتي، إلا أن فترات استقلال أوكرانيا عبر التاريخ كانت قصيرة وعابرة. في أغلب تاريخها، انقسمت هذه البلاد التي تعرف اليوم بأوكرانيا بين الإمبراطوريات الروسية، النمساوية الهنغارية، والبولندية الليتوانية، والعلاقة بين أقاليم أوكرانيا وروسيا متداخلة ومعقدة وتلخيصها عن طريق الحديث عن وحدة العرق السلافي، فأوكرانيا التي يبلغ عدد سكانها أكثر من (45) مليون نسمة، لا تضم سوى أقلية من الروس تقدر بحوالي (21%) من السكان ينتشرون في شرق أوكرانيا وشبه جزيرة القرم، فيما الغالبية العظمى (75%) هم من الأوكران والباقي هم من أقليات بيلاروسية ورومانية وتتارية.

وفي حين لم يكن لها حدودٌ جغرافية واضحة في القرون الثلاثة الماضية، فقد كانت أوكرانيا موضع صراع وتنافس بين قوى دولية كبرى، بما فيها روسيا القيصرية والامبراطورية العثمانية وفرنسا وبريطانيا وألمانيا النازية، ولعل أشهر حلقة في حلقات الصراع على أوكرانيا هي ما يعرف بحرب القرم، التي دارت رحاها بين روسيا القيصرية من جانب والامبراطورية العثمانية وفرنسا وبريطانيا ومملكة ساردينيا.

والمعروف أنه في مطلع القرن العشرين ضُمتّ أوكرانيا رسمياً إلى الاتحاد السوفيتي، وتعرضت في الحرب العالمية الثانية إلى اجتياح ألمانيا النازية، وانخرط قسم من السكان في صفوف القوات النازية ضد القوات السوفيتية، ولكن الاتحاد السوفيتي انتصر وبقيت أوكرانيا جزءاً مهماً منه، ولا سيّما بعد تمركز قطعات عسكرية حيوية في الأراضي الأوكرانية، وإقامة العديد من المنشآت الصناعية الثقيلة التي ما تزال تشكل إلى اليوم عصب الصناعة والاقتصاد الأوكراني، وهكذا بقي

**كانت أوكرانيا موضع صراع وتنافس بين قوى دولية كبرى، بما فيها روسيا القيصرية والامبراطورية العثمانية وفرنسا وبريطانيا وألمانيا النازية.**

**عبر السهل الأوكراني مرت الجيوش الأوروبية الغازية لروسيا في حربين عالميتين.**

الحال في أوكرانيا إلى أن تفكك الاتحاد السوفيتي، إذ سارعت أوكرانيا إلى الاستقلال عنه ورفض الانضمام إلى الاتحاد الروسي المنبثق عنه، ولما كان لروسيا الاوراسية ثلاث بوابات رئيسة تنفتح عبرها على العالم وهي: وسط آسيا، والقوقاز، وأوكرانيا، فإن الأخيرة هي أهمها وأخطرها على الإطلاق، فعبر السهل الأوكراني مرت الجيوش الأوروبية الغازية لروسيا في حربين عالميتين، وبالغتي الأثر على رؤية الروس القومية لذاتهم وعلى رؤيتهم لشروط بلادهم الجيوسياسية: **الحرب النابليونية والحرب الألمانية النازية**[19].

وتعد أوكرانيا الممر الرئيسي، إلى الآن، لأنابيب النفط والغاز الروسي إلى أوروبا الغربية، وتمتلك أكبر منظومة أنابيب لنقل الغاز وتتألف من (35,2) ألف كيلومتر من أنابيب الغاز، وأكثر من (120) محطة للضخ و(13) مستودعاً للغاز تحت الارض، ويمر فيها أنبوب غاز السيل الشمالي الذي يغذي أوروبا بثلث حاجاتها من الغاز، وفي مدينة سيفاستوبول الاوكرانية التي تتمتع بوضع قانوني خاص يقع مقر اسطول البحر الأسود الروسي، الذي يعد جوهرة البحرية الروسية.

تقع أوكرانيا في مقدمة المنطقة التي يسميها علماء الجيوبوليتيك بحافة اليابسة، بالنسبة لاوراسيا، أو الهلال الداخلي، والذي بنى نيقولاي سبيكمان نظريته عليه، إذ عدّ أن من يسيطر على حافة اليابسة يسيطر على أورآسيا، ومن يسيطر على أوراسيا يسيطر على العالم، وكذلك الجغرافي البريطاني هالفورد ماكندر، فهو أول من نبه إلى أهمية أوراسيا وحافة اليابسة واعتبرها نقطة الارتكاز الجغرافي ومن يسيطر عليها يسيطر على جزيرة العالم، ومن يسيطر على جزيرة العالم، يسيطر على العالم، ويقصد ماكندر بجزيرة العالم القديم آسيا وأوروبا وأفريقيا، ولقد فهم نابليون أهمية قلب اليابسة قبل ماكندر عندما توجه إلى روسيا، وكذلك تأثر قيصر ألمانيا وليم الثاني وهتلر وموسوليني بأهمية قلب اليابسة للسيطرة على أوروبا والعالم[20].

## خامساً: روسيا تغادر حيرتها

تحت عنوان (قطبان على أقل تقدير.. أو الموت) يبيّن عالم الجيوبوليتيكا الروسي الكسندر دوغين، أن روسيا باتت منذ فترة قصيرة أمام أحد خيارين

(19) رياض عيد، مَنْ مداخلة له في إطار برنامج «حلقات التفكير الاستراتيجي» التي ينظمها مركز دلتا للأبحاث المعمّقة في بيروت، تاريخ 14- 5- 2014.

(20) المصدر السابق، ص 2.

استراتيجيّين هما في غاية الخطورة والتعقيد، إما القبول بالنظام الكوني العالمي الجديد بقيادة الولايات المتحدة، وإما **التكوين الفوري للتكتل الجيو ـ استراتيجي المناوئ لمنظومة القوى الأطلسية.**

**إما القبول بالنظام الكوني العالمي الجديد بقيادة الولايات المتحدة، وإما التكوين الفوري للتكتل الجيو ـ استراتيجي المناوئ لمنظومة القوى الأطلسية.**

هذه الأطروحة التي تضمّنها كتاب دوغين المثير للجدل (أسس الجيوبوليتيكا)[21]، كانت أشبه بوصية سياسية أخلاقية بالنسبة إلى الزعيم الروسي فلاديمير بوتين، فقد بدا ولو أنه يأخذ بها منذ اليوم الأول لتسلمه مقاليد السلطة بعد سنوات الوهن التي عاشتها بلاده، تحت ظل الرئيس الأسبق بوريس يلتسن.

(21) مقدمة كتاب دوغين، المصدر السابق.

قبل انفجار القضيتين المذكورتين آنفاً، كان السؤال المحوري مركوزاً حول ماهية الموقع الذي يحتلّه بوتين في مواقع القرار الروسي، والمفارقة التي ينبغي ملاحظتها هي أن مثل هذا السؤال جرى تداوله في الوقت الذي بدا فيه، وكأن موسكو عادت لتمكث في منطقة الضباب الاستراتيجي بإزاء التحوّلات المدوية التي تعصف بالفضاء العربي الإسلامي المجاور لها، ثمّة من سبق ورأى أن روسيا في حقبة ميدفيديف الرئاسية دخلت مجدداً إلى حلبة التردّد والحيرة، وآخرون قالوا إن موقعيّة روسيا في العالم لا تني تترسخ بخطى ثابتة ولو ببطء، في حين مضى كثيرون إلى القول بأن البوتينية لم تفقد حيويتها تحت رئاسة ميدفيديف، بل هي تحوّلت إلى ظاهرة اخذت تحفر عميقاً في الزمن الروسي الجديد.

كانت الأحكام التي سادت روسيا الاستراتيجية في الأعوام الأولى من وصول فلاديمير بوتين إلى سدة الحكم في روسيا عام 2000، فقد كان ذلك أمراً طبيعياً فرضته مرحلة الانتقال، والإرث الثقيل الذي نجم من فوضى السلطة والمجتمع في عهد يلتسن، ولكن بعد مخاض فكري حول سؤال الهوية، والاسباب التي أدت إلى انهيار الاتحاد السوفياتي، بدأت إرهاصات تحول عميق تمثل بولادة فلسفة سياسية، تقوم على إعادة تشكيل روسيا على نصاب القوة والسيادة والاقتدار، وهذا ما سيظهر لنا عبر جملة من الشواهد:

**موسكو عادت لتمكث في منطقة الضباب الاستراتيجي بإزاء التحوّلات المدوية التي تعصف بالفضاء العربي الإسلامي المجاور لها.**

- بروز الاوراسية كعقيدة جيوبوليتيكية جديدة تحكم تطلعات وسياسة روسيا الاتحادية المستقبلية.

**سوريا وللمرة الأولى بعد الحرب الباردة تدخل عاملاً أساسياً أيضاً في صميم الأمن السياسي والاقتصادي والقومي الروسي..**

- ارتفاع كبير في أسعار النفط والغاز الذي مكن روسيا من اجتياز العجز الهائل في ميزان المدفوعات (300 مليار دولار)، الذي سببته سيطرة المافيا الروسية على الاقتصاد الروسي، فلقد استطاع بوتين أن يخرج روسيا من عجزها المالي، ويحقق فائض مالي تجاوز الـ(1) تريليون دولار حتى الآن.

- قرأ بوتين جيداً أسباب انهيار الاتحاد السوفياتي وتفككه، وقرأ أهمية مادة الغاز المستقبلية (حيث أطلقت منظمة الطاقة العالمية تسمية القرن الحادي والعشرين بالعصر الذهبي للغاز)، لا سيّما وأن روسيا هي الدولة الأولى المنتجة للغاز في العالم.

- إدراك خطورة المخططات الأميركية على الأمن القومي، عن طريق نشر القواعد الأميركية والدروع الصاروخية في أوروبا ووسط آسيا وتركيا.

- وقوفه مع الصين عقبة كأداء في مجلس الأمن بوجه المخططات الأطلسية في سوريا، ومنع إسقاطها بحمايتها بثلاثة فيتوات، حفاظاً على مصالح روسيا الاستراتيجية في المتوسط، وحفظاً على قاعدة طرطوس (القاعد الوحيدة المتبقية لروسيا خارج أراضيها بعد القرم)، مما جعل سوريا وللمرة الأولى بعد الحرب الباردة تدخل عاملاً أساسياً أيضاً في صميم الأمن السياسي والاقتصادي والقومي الروسي[22].

(22) رياض عيد، مصدر السابق.

يدرك الكثيرون أن الطريقة التي أخذ بها بوتين ليبلغ هذا الهدف حملت مزيجاً مركباً من العقل البارد، ومن خيارات القوة التي تخلّلت التجربة الروسية الطويلة، ومع أن الكرملين حقَّق في عهده نجاحاً ملحوظاً في إعادة الاعتبار لقوة روسيا، فقد واجه في المقابل قوى ضغط لا حصر لها في الداخل والخارج، بإزاء ذلك كان على بوتين أن يسلك بصعوبة نادرة طريقه الخاص الثالث في مواجهة فوضى النفوذ المالي والإعلامي والأمني والعسكري، في موازاة العمل الجاد، لكن البطيء لجهة تشكيل تحالفات دولية وإقليمية في مواجهة الجموح الأميركي المتمادي.

عندما استهل بوتين ولايته بحرب احترازية في شمال القوقاز، كان يعرف أن سياسة كهذه لا مناص منها لتقوم المعادلة في هذه الجغرافيا المضطربة، على نصاب غير متناقض مع الأمن القومي الاستراتيجي لروسيا، والذين وقفوا

على طريقة إدارته لحرب الشيشان لاحظوا اعتماده على ما كان يسميه مؤسس الدولة السوفياتية فلاديمير لينين بـ(**سياسة ليّ القضيب**)، المعروف عن هذه السياسة التي صاغها زعيم الثورة الاشتراكية وطأة حربين متلازمتين، أهلية وخارجية، إنها تقوم على نظرية الردع التي تنتهي إلى التوازن أو إلى الغلبة في الصراع مع الخصم.

وقوامها أن منطق التطرف أو الانفصال لا يستوي على (اعتدال) ما، إلا أذا قوبل بمنطق قوة معاكس يتجاوز ما لدى الخصم من قدرات، يدرك بوتين أن القضايا المتّصلة بالأمن القومي لروسيا تحمل بعداً جيو ـ استراتيجياً يستحيل النظر إليه بتبسيط، فالأوساط الغربية وفي مقدمها الولايات المتحدة الأميركية، كانت ولاتزال تنظر إلى الجمهوريات المستقلة عن الاتحاد السوفياتي السابق، كمناطق نفوذ لمصالحها الحيوية، وليس بعيداً عن ذلك ما تتوخاه نظرية ملء الفراغ التي وضعها مستشار الأمن القومي الأميركي الاسبق زبيغنيو بريجنسكي والمشهورة بـنظرية (**الثقب الأسود**)، في إشارة منه إلى روسيا الكبرى وما تشمله من مجالات جيو ـ استراتيجية تتسم أوضاعها بالفوضى وعدم الاستقرار.

**أن منطق التطرف أو الانفصال لا يستوي على (اعتدال) ما، إلا أذا قوبل بمنطق قوة معاكس يتجاوز ما لدى الخصم من قدرات.**

قد تكون واحدة من الغايات الأساسية لاستراتيجية بوتين، هي السعي إلى إغلاق الثقب الأسود الذي أحدثه الغرب النيو ـ امبريالي في جدار الأمة الروسية بعد سقوط الاتحاد السوفياتي، أما مؤدى هذا المسعى فسنجده بالتوثُّب، الذي لا يهدأ نحو نغير قواعد اللعبة الدولية التي كرستها ظاهرة العولمة، أي العمل على تشكيل محور عالمي يرسخ التعددية القطبية ويقيم حداً ختامياً على الأحادية الأميركية.

ربما كانت الخطوة الأكثر مدعاةً لملاحظات الخبراء كانت في «التحالف» الروسي ـ الصيني حول القضية النووية، ولقد بدا لهؤلاء إن إصرار موسكو ـ بكين على الالتزام بمعاهدة الصواريخ المضادة للصواريخ البالستية، يعني في حقيقة الأمر الاعتراض الصارم على انفراد واشنطن بالمجالين النووي والعسكري والسيطرة عليهما، ولذلك ليس من قبيل المصادفة أن تكون عبارة (الشراكة الاستراتيجية) بين الصين وروسيا أكثر من مجرد اصطلاح دبلوماسي بارد.

**ليس من قبيل المصادفة أن تكون عبارة (الشراكة الاستراتيجية) بين الصين وروسيا أكثر من مجرد اصطلاح دبلوماسي بارد.**

ثمة من رأى أن البوتينيّة باتت حاضرة بعمق في صياغة القرارات الكبرى لروسيا، لكن الكرملين المكتظ بالقلق على مصير روسيا، لا تفارقه أحلام العودة إلى قلعة القيصر الأعظم، في حين أن أحلاماً كهذه تستلزم الانتقال الصعب من التردّد إلى الحسم في الخيارات الاستراتيجية، ذلك أن لحظة الاحتدام في البحر الأسود وآسيا الوسطى، وتلك التي يعيشها الشرق الأوسط، من بغداد إلى طهران إلى دمشق وبيروت والقاهرة، وصنعاء وطرابلس الغرب إنما تفترض تجاوز الاداء البطيء في اللعبة المحمومة[23].

(23) محمود حيدر، بوتين بعد لينين: استئناف بطرس الأكبر، جريدة البيان الاماراتية، 5 ـ 2 ـ 2010.

ربما سيكون على بوتين مرحلة ما بين الفيتو وأوكرانيا التهيؤ للمخاطرة في تمرين جديد على (حرب باردة) من طراز مختلف، لكن هذه المرة، وكما ينصح عدد من المفكرين الاستراتيجيين الروس، ضمن تحالف حضاري يجمع ثلاثة فضاءات كبرى: فضاء روسيا الارثوذكسية، وفضاء الصين الكونفوشيوسية وفضاء الإسلام الممتد بين آسيا وأفريقيا حتى تخوم الغرب الأوروبي، هل سيمضي بوتين إلى النهايات لاستعادة الضفة المقابلة للتوازن الدولي؟.

كل شيء يفترضه الجواب الآن هو رهن اختبارات دقيقة، لعل أكثرها حساسية مواجهة الغزو الأطلسي المستأنف باتّجاه المياه الدافئة، ذاك أن مثل هذه الاختبارات سيكون لها مفاعيل حاسمة في الزمن الانتقالي لعالم ممتلئ بقابليات الانفجار.

بإزاء هذا السؤال، فضلاً عن الجواب عليه، تدرك تركيا أردوغان أن ما يترتب عليها من أسئلة معاكسة قد يكون الجواب عليها مؤلماً وشاقاً، بل ربما يكون مستحيلاً بعدما فارق حزب العدالة والتنمية نظرية الامتداد الهادئ في الاقليم، لصالح الاستغراق في فضاء عارم من الأعاصير السياسية والأمنية الممتدة من آسيا الوسطى إلى شواطئ البحور الدافئة، في مثل هذه الحال، لا شيء يقع خارج الاحتمال، فقد اعتاد الروس والأتراك معاً على استذكار ملحمة الأجداد الدامية ولو إنها الحاضر المستمر، إلا أن المسافة الطفيفة بين حافة الهاوية والوقوع فيها سيبقى يشكّل نظام الردع الأخير ولو إلى حين.

**اعتاد الروس والأتراك معاً على استذكار ملحمة الأجداد الدامية ولو إنها الحاضر المستمر.**